الأطلسي، وليسوا الرواد الأوائل الحقيقيين الذين يبدو لمتتبع خطوات الفينيقيين التوسعية خلال الثلث الأخير من الألف الثانية والألف الأولى ق.م. بأنهم تتبعوا بشيء من الدقة خطوات شعوب متوسطية سبقتهم في الريادة لهذه المناطق والتي لا نعلم عنها الكثير، هذه الشعوب تركت بصماتها ورموزها الدينية والدنيوية أيضا ونقصد بها المنهير والدولمن والتملوين وغيرها من الشواهد الأثرية التي لا تزال قائمة حتى اليوم على طول شطآن المتوسط وشطآن الأطلسي الأوروبية والأفريقية من السنيغال جنوبا وحتى الجزر البريطانية شمالا (مازل ص 95).

(16) فنطر، يوغرطة. أنظر مداخلة مولود معمري، المتوسط، ص 18.

(17) بول البير فيفريي، مداخلته، ص 17. أنظر أيضا مداخلة بيير لوفاك، ص 19.

قضيّة السيادة النوميدية من خلال المصادر القديمة

محمد البشير شنيتي

يحدث أحيانا أن تتحول كتابات بسيطة غير موضوعية مفعمة بالذاتية والتحيز في زمانها الى مستندات وحيدة في موضوع تاريخي حساس، ان سلمت من التلف وبقيت وحيدة في ميدان المعرفة التاريخية. وهذا شأن كتابات بعض من وصفوا بالمؤرخين من أوائل الكتاب الرومان أمثال صلوستيوس وكذا حال بعض كتابات الرواد الأوائل من الأوروبيين في شمال افريقيا، فهي رغم الاتفاق على ضعفها وتحيزها أحيانا، وعدم تخصصها، فأنها أصبحت مستندات فيما بعد. وهنا يكمن وجه الخطورة ويبرز احتمال التزييف والبعد عن الحقائق التاريخية والتحكم في توجيه اهتمام القارئ وتصوره للأحداث وبالتالي تعتيم الرؤيا التاريخية لديه. وهي أمور تدعونا الى أعمال الفكر والتأمل عسى أن نجد سبيلا لرفع الزيف وتوضيح المسلك.

ومما يثير الانتباه بخصوص مملكة نوميديا أن كل ما نعرفه عن هذه الدولة الجزائرية القديمة، مصدره كتابات كلاسيكية يونانية لاتينية، تتركز عند بوليبيوس وأبيانوس اليونانيين، وصلوستيوس وليفيوس الرومانيين. وأن كثيرا من هذه المعارف مختلف فيما بين اليونانيين والرومان، فضلا عن اتصاف الاخباريين اليونان ازاءها بالحياد النسبي والاعتدال في الحكم على قضايا تاريخية هامة فيها، بينما يبرز انحياز الكتاب الرومان وتطرف آرائهم في نفس القضايا.

إن المتمعن في كتابات صلوستيوس وليفيوس مثلا حول مملكة نوميديا وكذا السكان المغاربة بصفة عامة، يدرك أنها لا تختلف كثيرا عن كتابات الفرنسيين حول الفترة السابقة للاحتلال من تاريخ الجزائر أو عن دولة الأمير عبد القادر والمقاومة بصفة عامة. كما يلتمس أن تلك الكتابات (خاصة كتابات صلوستيوس) نابعة من مواقف سياسية لأصحابها، وتعبر بصدق عن انتماءاتهم وتحزباتهم.

إن مملكة نوميديا كيان سياسي قام على أرض الجزائر منذ القرن الثالث قبل الميلاد، وقد تطورت هذه المملكة خلال القرن الثاني ق.م.، واتسعت رقعتها الجغرافية فشملت معظم بلاد المغرب آنذاك. حيث بسطت نفوذها على البلاد الواقعة بين نهر الملوية وخليج السيرت الكبير شرقا. انها أول دولة في تاريخ الجزائر خاصة والمغرب عامة بلغت ذلك المستوى الرفيع من القوة والازدهار وحازت اعجاب وإشادة المؤرخين المعاصرين لها أمثال بوليبيوس اليوناني غير أن نظرة المؤرخين الرومان لسيادة هذه المملكة وشرعية ملوكها تختلف عن نظرة المؤرخين اليونان وترتب عن هذا الاختلاف الذي لا يستند إلى وثائق ان برزت اشكالية تاريخية حول مدى استقلال المملكة عن الجمهورية الرومانية ابتداء من عام 203 ق.م. وهي السنة التي آلت فيها مقاليد نوميديا إلى يدي مسنيسا عقب هزيمة الملك صفك (سيفاكس) ووقوعه في الأسر.

معروف لدى المهتمين بتاريخ الجزائر القديمة أنه خلال الحرب المعروفة بالبونية وفي جولتها الثانية (218 ـ 202 ق.م.) ان صح التعبير اتخذت دول المغرب من الطرفين المتحاربين (أي القرطاجيين والرومان) مواقف متباينة ومتقلبة أحيانا تبعا لتطورات الحرب ومراعاة لمصالحها وصونا لسيادتها.

وكان لتلك التقلبات أثرها على علاقاتها فيما بينها وعلى أوضاعها الداخلية عموما. كما سعى الطرفان المتحاربان كل من جهته للحصول على أحلاف وخلق جبهة داخلية ضد خصمه. وقد فشلت محاولات الرومان لكسب أعظم ملك وهو صفك الذي انضم الى جانب القرطاجيين بعد فشل مساعيه لإيقاف الحرب بالطرق السلمية (لقاء سيفاغ بين صدربعل وسيبيون)، فالتجأ الرومان الى الأمير مسنيسا الذي كان يبحث عن دعم يمكنه من استرجاع مملكة أبيه من أيدي بني عمه المغتصبين.

ولما انتصر مسنيسا على صفك بمساعدة فصيلة من الجيش الروماني قادها ليليوس Laelius وهزم حنبعل بفضل فعالية الفرسان النوميديين بقيادة مسنيسا وتربع هذا ملكا على عرش مملكة أبائه وضم اليها أراضي مملكة صفك ومنحه الرومان تاج النصر مهنئين اياه على النجاح الباهر واعترفوا به ملكا وحيدا على نوميديا، وأجبروا القرطاجيين على التنازل له على ممتلكات أبيه من مدن وأراضي وغير ذلك. ونصصوا على ذلك في معاهدة السلم التي أملوها عليهم عام 202 ق.م.

أما مضمون الاشكالية (أي القضية) فيما ذهب إليه كل من صلوستيوس وليفيوس من أن مملكة نوميديا آلت أمورها شرعياً إلى حوزة الرومان بعد هزم صفك وموته في الأسر بروما وأن مسنيسا لا حق له في العرش وأنه لم يكن سوى وكيل لمجلس الشيوخ على هذه المملكة. وأن أبناءه وأحفاده كانوا كذلك أيضاً، ولم يورد هذان المؤرخان مستندات تدعم ما ذهبا إليه في حين أن بوليبيوس وأبيانوس اليونانيين لهما طرح آخر للقضية مفاده أن العلاقة بين مملكة نوميديا وجمهورية روما علاقة حلف وصداقة ولا مجال للتبعية فيها.

وباختصار يقتضيه ضيق الوقت المخصص لهذا العرض أوجز رأي صلوستيوس (86ـ34 ق.م) حول الموضع وهو أول من ادعى تبعية المملكة واختلق حولها ما شاء من روايات وحكايات.

جاء في كتابه المعروف بحرب يوغرطة (Bell. Yujurth) أن نوميديا لم تكن مملكة سوى بالمجاملة وأن وجودها كان وهميا وأن اسمها مدين للشعب الروماني الذي دفعت به الضرورة الى تكليف شيخ قبيلة بتسييرها باسمه فسلمه الحلة الارجوانية وداعبه بلقب ملك، ثم أورد تصريحا نسبه لأذربعل أحد أحفاد مسنيسا قال بأنه ألقاه أمام مجلس الشيوخ بروما جاء فيه:

«أوصاني أبي (مكيبا) وهو في فراش الموت بأنني لا أملك سوى وكالة تسيير المملكة النوميدية، وأن السلطة الشرعية (Jus) في قيادتها تعود اليكم» (يقصد مجلس الشيوخ الذي كان يخاطبه أذربعل).

ويعلق صلوستيوس بأن أذربعل لم يكن يمارس سوى سلطة عسكرية وأن السلطة الملكية Regnum هي حق للشعب الروماني وهذا ما يفهم من العبارة التي

نسبها لآذربعل وهي «ان مملكة نوميديا ملك لكم « Regnum numidiae quod vostrum est » ومن ثم فان حالة الحرب التي قامت بنوميديا على يد يوغرطة هي تمرد في نظر صلوستيوس وليست نزاعا بين طرفين (نوميديا وروما).

أما ليفيوس (59 ق.م. ـ 17 م) الذي ألف كتابه «تاريخ الرومان» حوالي سنة 20 ق.م. أي بعد صلوستيوس بعشرين سنة تقريبا، فانه لم يخرج عن الاطار الذي رسمه سلفه صلوسايوس بشأن تبعية المملكة النوميدية للرومان وحاول أن يستشف أدلة على ما ذهب اليه من امتناع مملكة نوميديا عن قبول تعويضات بعثت بها روما اليها عن حبوب تلقتها منها اثناء حروبها في اليونان، وأورد ليفيوس تصريحا لابن مسنيسا الذي أوصل هذه المساعدات الى روما جاء فيه بأن أباه (أي مسنيسا) مدين للشعب الروماني ولا يحق له قبول هذه التعويضات (XLV, 13) .

وكما تلاحظون فان كلا من صلوستيوس وليفيوس روي خبرا ونسب كلاما لأمير نوميدي أمام مجلس الشيوخ مضمونه اعتراف بالتبعية دون سند تاريخي.

ويظهر أن رأيهما نابع من اعتقاد قائم على فكرة تشريعية رومانية قديمة (القرن الرابع ق.م) مفادها أن البلاد التي هزم فيها الرومان أعداءهم تدخل ضمن مكتسبات الشعب الروماني سواء مارس هذا الشعب حقه عليها بصفة عملية أو أكتفى به نظريا.

وهذا الاعتقاد قد طوره الديمقراطيون المعتمدون على طبقة العوام وممثليها الترابنة (نواب العوام) أواخر العهد الجمهوري، وهي الفترة التي ظهر فيها صلوستيوس، وأصبح يمثل قضية سياسية في أوساط مجلس الشيوخ تمسك بأهدابها المنتمون الى التيار الشعبي (الديمقراطي) المناهض للنبلاء (الارستقراطية) الذين كانوا يرون القضية على وجه آخر وهو حق مسنيسا في وراثة مملكة نوميديا وسيادته عليها بصفة مستقلة عن الجمهورية الرومانية مع الاحتفاظ بالصداقة والتحالف مع روما.

ويدعى صلوستيوس المعبر عن وجهة نظر الديمقراطيين أن مملكة صفك (سيفاكس) أي نوميديا الغربية (مازيصولا) قد أصبحت ملكا للشعب الروماني نتيجة لهزم وأسر ملكها عام 203 ق.م. على يد مسنيسا بمساعدة ليليوس. ذلك أنه بمجرد مشاركة رمزية لجنود رومان في تلك المعركة الفاصلة أكسب الشعب الروماني

حق الانتفاع بأرض المهزومين حسب المفهوم المشار اليه آنفا. لكن ادعاء صلوستيوس هذا الذي بني عليه القول بأن نوميديا كلها وضعت تحت حكم مسنيسا بالوكالة أغفل جانبا هاما، وهو أن سقوط صفك عام 203 ق.م.، حدث ونوميديا مجزأة الى مملكتين كبيرتين: مصولة (نوميديا الشرقية) ومزيصولة (نوميديا الغربية) أولا هما ملك وراثي لمسنيسا والثانية أصبحت في وضع غنيمة حرب له ولحلفائه الرومان، هذا ان أخذنا بمفهوم صلوستيوس.

وساد اعتقاد أكثر تطرفا في أوساط الديمقراطيين بروما روّج له نواب العامة وبعض أعضاء مجلس الشيوخ قلل كثير من دور مسنيسا في الحرب البونية الثانية الى حد القول بأنه لم يفعل أكثر من أنه ساعد الرومان في فتوحاتهم بنوميديا الغربية (مزيصولة) وبذل بعض الجهد في معركة زاما (202 ق.م) ومن ثم استحق عطاء محدودا تمثل في تنصيبه وكيلا على نوميديا يسيرها باسم الجمهورية الرومانية تحت صفة Procuratio .

وفي هذا السياق أورد ليفيوس فقرة من خطبة نسبها لأومين Euméne أحد أعضاء السيناتو قالها عام 189 ق.م.، جاء فيها: «ان مسنيسا قبل أن يكون حليفا لكم كان عدوكم. انه عندما التجأ الى معسكركم لم يصحب معه جيشا تابعا لمملكة قائمة، ولكنه أقبل عليكم كرجل حكم عليه بالنفي والأبعاد... فلم يكفكم أنه انتصب على مملكة آبائه ولكنه أضاف الى هذه المملكة القسم الأكثر غنى من مملكة سيفاكس (صفك)، لقد جعلتم منه الملك الأكثر قوة بين ملوك افريقيا» »

(Livius, XXXVII, 53,22).

أما رواية بوليبيوس المستندة الى أومين Euméne نفسه، ولبوليبيوس الفضل في تدوينها وقد نقلها عنه ليفيوس بتحريف ، فتختلف في صياغة بعض الجمل منها عبارة «جعلتم منه ملكا» الواردة عند ليفيوس التي جاءت عند بوليبيوس «اعترفتم به ملكا» والفرق واضح بين معني «جعلتم منه» واعترفتم به» كما أنه لم يفرق بين مملكة نوميديا الشرقية التي افتكها مسنيسا من أيدي خصومه في البيت المالك وبين نوميديا الغربية التي ضمها الى حكمه بعد قضائه على ملكها صفك (سيفاكس).

ونقل ليفيوس عن بوليبيوس فقرة تضمنت الاشارة الى اعتراف مجلس الشيوخ

الروماني بمملكة نوميديا جاء فيها: «أرسل السناتو بعثة لتهنئة مسنيسا ليس فقط لكونه سيطر على مملكة آبائه ولكن لأنه وسعها بضم القسم الأكثر غنى من مملكة صفك».

وبخصوص هذه الشرعية أورد بوليبيوس أن «أهل الماسيل وضعوا بين يدي مسينيسا مملكة آبائه وهم سعداء بأنه سيكون ذلك الملك المرتقب منذ أمد بعيد». ان هذا النص يعبر عن اخلاص النوميديين لعرشهم وثقتهم في الملك الذي سيعتليه دون اكتراث برأي روما في الموضوع.

ويفهم من بوليبيوس أن مسنيسا ملك حرّ ولكنه صديق للرومان شأنه في ذلك شأن معاصريه من الملوك المتاخمين لحدود الامبراطورية الرومانية، ومن ثم فلا مجال لفكرة العطاء Donatio (أي منحه المملكة من قبل الرومان) التي روج لها صلوستيوس وليفيوس. وفي هذا الشأن جاء عند بوليبيوس أن معاهدة السلم المبرمة بين روما وقرطاجة عقب معركة زاما (202 ق.م.،) تضمنت مصالح المملكة النوميدية كطرف ثالث في النزاع ومنها: ان الممتلكات والحقول والمدن وجميع ما هو بحوزة مسنيسا أو كان تابعا لمملكة آبائه يجب اعادته اليه (XV, 18, 1).

أما أبيانوس فروايته حول الموضوع تجعلنا نستخلص أن مسنيسا دخل الحرب الافريقية (البونية الثانية) كملك نوميدي قوي الجانب، وأنه دخلها الى جانب حليفه سيبيون مخيّرا على رأس جيش من رعايا مملكة أجداده الماسيل. جيش متمرس على فنون وأساليب القتال التي تقتضيها الأرض الافريقية، وأنه دخلها بعبقريته العسكرية واقدامه (الجريء) دون أن يهمل نصائح حليفه سيبيون عندما يكون محتاجا اليها ويعرف كيف يتخلص منها ان كانت تعوقه. وفي هذا السياق يدخل هجومه الانفرادي على خصمه صفك ودخوله مدينة كيرتا وقبضه على سوفونزية أرملة الملك الأسير صفك وتزوجه منها ثم قتله اياها بدل تسليمها لحليفه سيبيون الذي جد في طلبها. وقد كان هذا الأخير يخشى على مسنيسا من تلك السيدة القرطاجية القوية التأثير فينقلب ضده ويفسد خططه العسكرية في افريقيا التي تضمنها هجومه المعاكس ضد القرطاجيين.

ويقول أبيانوس موضحا تصرفات مسنيسا بأن الجنود الرومان المصاحبين لجيش مسنيسا لم يلعبوا دورا يذكر في المعارك التي دارت ضد صفك. وأن مسنيسا

هو الذي تمكن من الانتصار على عدوه وأسره وأنه قرر ارساله الى حليفه سيبيون بمحض ارادته وليس قائد الجنود الرومان ليليوس Laelius هو الذي أجبره على ذلك، وأن رفضه لتسليم سوفونزية نابع من كونه اعتبر نفسه صاحب الحق الأول في غنائم المعركة التي انتصر فيها. ولما اصر حليفه على المطالبة بها جرّعها السم بدل وضعها غنيمة بيد سيبيون الذ تفهم تصرف مسنيسا ولم يعاتبه عنه. وأساء ابيانونس الى أن دوافعه للتحالف مع سيبيون لم يكن سوى طموح في الحصول على امبراطورية واسعة الأرجاء ومما يؤكد ذلك أنه كون نوميديا المستقلة حسب تصوره ووفق رغبته. ويبدو أن أبيانوس استخدم وثائق كان بوليبيوس قد استفاد منها قبله ولم يصلنا من ما كتبه حول هذا الموضوع اعتمادا عليها بسبب ضياع أجزاء هامة من كتابه.

هل مارس الرومان حقهم المزعوم في مملكة نوميديا؟ قضية خلافة مسنيسا ومن بعده

ان اختلاف الرأي بين المؤرخين القدامى حول موضوع استقلالية المملكة أو تبعيتها لروما ترك الباب مفتوحا لاجتهادات المؤرخين المحدثين فحاول بعضهم دراسة هذه الاشكالية على ضوء النصوص القديمة واستقراء الأحداث المتعلقة بالعلاقات النوميدية الرومانية، ومنها موقف الرومان من انتقال العرش من ملك هالك الى خلفه، وهل كان لروما دخل في ترتيب أمور الخلافة عند وفاء الملك أم أنها كانت تكتفي بالاعتراف بالوريث مهما كانت مواصفاته؟

الواقع أنه عندما حضر مسنيسا الموت أرسل في طلب القنصل الروماني سيبيون ايميليانوس، وكان آنذاك يحاصر قرطاجة (148 ق.م.،) ولكن الموت عاجله قبل وصول هذا الممثل الروماني فترك مقاليد المملكة موزعة في الظاهر بين ثلاثة من أكبر أبنائه وهم مكبسا وغلوسا ومستنبعل كما هو معروف، ولما وصل سيبيون المذكور حضر مراسيم توزيع المهام بينهم، ففهم من ذلك أنه وزع السلطة بينهم مما يؤكد مقولة صلوستيوس وليفيوس بتبعية المملكة للرومان.

وهذه الملابسات الناجمة عن سكوت المصادر خاصة المحايدة منها. يجعلنا نبحث عن معطيات أخرى لمزيد من الوضوح. من ذلك أن مسنيسا وضع في اصبع ابنه الأكبر مكبسا خاتم الملك (Gsell. Han., III, 365) إشارة الى أولويته في الخلافة شرعا. لكنه فضل أن يبقى الاعلان عن ذلك الى حين حضور ممثل روما ليشهد الأمر ويعبر عن اعتراف مجلس الشيوخ الروماني بذلك.

ولا يستبعد أن مسنيسا قد أوصى أبناءه الثلاثة بتقاسم مهام المملكة كل حسب كفاءته واختصاصه. وهو ما وقع فعلا بحضور سيبيون المذكور. حيث استلم أكبرهم المحرز على خاتم الملك من أبيه الأمور الادارية وكلف آخر بالجيش بينما اسندت الشؤون القضائية وغيرها لثالثهم. واذا استرشدنا بالمعلومات المتعلقة بالمهام التي كان يقوم بها كل واحد منهم في حياة والدهم فاننا نجد المهام المسندة اليهم بعد وفاته لا تغاير تلك التي كانوا يمارسونها من قبل. اذ كان مكيبسا يساعد آباه في شؤون السياسة والادارة ويقود غلوسا الجيش ويشرف على الشؤون العسكرية بينما يقوم مستنبعل بالأمور ذات الطابع الاجتماعي والقضائي المتناسب وتكوينه. وهكذا فسواء أوصاهم أبوهم بالاحتفاظ بمهامهم مع طاعة كبيرهم المسلم خاتم الملك أو أنه أبلغ وصيته لممثل حلفائه الرومان لأمر في نفس مسنيسا، فأن شؤون المملكة لم يحدث فيها تغيير بعد وفاته. ثم أن مكبيسا ما لبث أن بقي وحيدا بعد وفاة أخويه ولم يتدخل الرومان في إضافة شخص أو أكثر شريكا له في قيادة المملكة مما يزكي القول باستقلاليتها وبكون القيادة العليا فيها كانت لمكبيسا ولم يكن أخواه سوى مساعدين له.

وإذا رجعنا الى المعطيات الأثرية وعلى رأسها مسكوكات المملكة النوميدية فأننا لم نعثر حتى الآن على قطع تنسب الى غلوسا أو مستنبعل. في حين توجد قطع نسبها المختصون لمكسبا، وهو ما يدل على أنه تمتع بلقب الملك من دون أخويه، ثم ان النقود الملكية وغير الملكية المنسوبة للمدن العائدة الى تلك الفترة، لا تحمل اشارات يفهم منها أي وجه من أوجه التبعية أو الارتباط بالرومان.

وحاصل القول أن ادعاء صلوستيوس وليفيوس بتبعية المملكة النوميدية لروما مستخلص من رأي عام تكون لدى طائفة من دعاة ضم أراضي الشعوب المجاورة

للمقاطعات الرومانية وهو رأي ساد الأوساط السياسية والشعبية في روما أثناء حرب يوغرطة واستغله بعض أعضاء السيناتو من ذوي الاتجاه المعادي للارستقراطية المسيطرة على هذا المجلس فأوهموا الناس أنه كان على أرباب السلطة في روما ألا يتركوا الفرصة للنوميديين حتى يصبحوا في مستوى الخطر الذي ظهر به يوغرطة على روما وأنه كان يجب على الارستقراطية الحاكمة أن تتصرف بطريقة أخرى تجعل من مملكة نوميديا اقليما رومانيا منذ انتصار الجيش الروماني في افريقيا استنادا الى العرف الروماني القديم.

ولما انتصر الديمقراطيون بزعامة يوليوس قيصر صديق صلوستيوس الحميم كان يجب أن يزيل المملكة النوميدية من الخريطة السياسية بالمغرب وكان على صديقه المنتفع بنعمته (عيّن صلوستيوس حاكما على المقاطعة الرومانية المنشأة على أنقاض مملكة نوميديا عام 46 ق.م.،) أن يبحث عن مبررات لهذا المصير المشؤوم متخذا من ادعاءات أفراد تسوقهم أهواء سياسية وضغائن شخصية مستندات تاريخية لتبرير قرار قيصر باسقاط العرش النوميدي نهائيا بدعوى حق الشعب الروماني في هذه المملكة منذ القدم.